الحرب الصليبية في البلقان

قد عرف كل قارئ وكاتب وواع وسامع حقيقة ما تسميه أوربة (المسألة الشرقية) وهو إزالة دول الاسلام من الشرق - وبعبارة أخرى من الارض - وجعلها قسمة بين الدول الغربية - وبعبارة أخرى المسيحية - وأول ما يهمهم من بلاد المسلمين ما كان منها في أوربة فان من طباع الاوربيين وغرائزهم الموروثة شدة العصبية على من لم يكن منهم وعدم احتمال وجوده بينهم . بل كانوا لا يحتمل بعضهم من بعض مخالفة في دين ولا مذهب ، ولذلك أبادوا الوثنيين من أوربة لما صار أكثرهم نصارى ، وأبادوا المسلمين من غربي أوربة (الاندلس) ولا يزالون يعملون لابادتهم من شرقيها (تركية أوربة) ولا تنس ما جرى بينهم من الحروب لاختلاف المذاهب النصرانية حتى غلب كل مذهب في دولة أو دول . ولولا فضل اليهود والاحرار المارقين من النصرانية على أوربة بتأسيس الماسونية الداعية الى الحرية والمساواة بينهم وإزالة السلطة الدينية لظلت الدماء تراق حتى يبيد أهل مذهب واحد جميع المذاهب كما ابادوا دين واحد جميع الاديان

كانت الدولة العثمانية أقوى من جميع دول أوربة بأسا ، ولكنها لم تكن قط أقوى عقلا ورأيا ، فكانوا يستفيدون من قوتها بحسب دهائهم ، حتى صاروا بارتقاء العلوم والفنون وما يترتب عليها من الصناعات أقوى منها . حينئذ طفقوا ينتقصون بلادها من أطرافها ، فازالوا سلطانها عن بلاد اليونان والرومان والبلغار ، ولم يسموا من البلاد التي كانت لها عدة امارات وممالك بجوارها تأسيسا تدريجيا ، واخذوا على عاتقهم حمايتها منها ، فاذا اغارت إحدى هذه الامارات أو الممالك على شيء من بلاد الدولة حتى عند ما كانت تحت سيادتها ساعدتها أوربة على امتلاك ما أغارت عليه ، واذا وقعت حرب انتصرت فيها العثمانية واخذت شيئا من بلاد إحدى هذه الممالك ردته أوربة اليها ولم تسمح للعثمانية بأن تستفيد من انتصارها

شيئا . والاصل في ذلك القاعدة المتفقة عليها بين دول أوربة كافة ونقل عن اللورد سالسبوري التصريح بها وهي « ما أخذه الصليب من الهلال لا يعود الى الهلال ، وما اخذه الهلال من الصليب يجب ان يعود الى الصليب »

هذا هو الواقع الذي تمدح به أوربة في رأيي وانما يذم منكره والمكابر فيه من مناقفي بلادنا وغيرهم ، وهذا ما ظهر للعيان في الحرب الحاضرة فقد صرح بعض ملوك التحالف البلقاني ووزراؤه بأن هذه الحرب صليبية محضة المراد منها انقاذ المسيحيين من سلطة « الترك الكافرين » وصرحت الدول العظمى في اول الامر عندما كن يعتقدن ان الدولة العثمانية أقوى من البلغانيين ويرجى ان تنتصر عليهم بأنهن لا يسمحن للغالب في هذه الحرب بأن يأخذ شيئا من ملك المغلوب بل يجب ان تبقى البلاد كلها على حالتها الحاضرة التي تواثقت الدول كلها على حفظها . فلما ظهرت بوادر الغلبة للبلغانيين على الترك بدالهم ، ولم تخجل دولة ولا جريدة لدولة من التصريح بانه لا يمكن حرمان دول البلقان من ثمرة انتصارها

هذا قول إجمالي وجيز في تصرف أوربة في الدولة العثمانية الى هذا اليوم وهو تصرف العاقل الحكيم في القاصر الجاهل . واني اعتقد ان أوربة لم تكن في الماضي ولا في الحاضر شرا علينا من أنفسنا ، ولو وجد في الدولة عقلاء مصلحون لتيسر لهم النهوض بها بمساعدة أوربة نفسها ، ومن لا يصلح نفسه لا يصلحه غيره . والدولة تعرف في الجملة ما هي أوربة وهي الآن منها كالمريض بين يدي ممرضه الذي يعالجه عند شدة الالم بالمورفين الذي يسكن آلامه في الحال ، ليسلبه الحياة في الاستقبال ، ولكنه لا يرى في نفسه غنى عنه ، فهي تقي نفسها بين يدي أوربة ، وتقول لها تصرفي كيف شئت ولكن تكرمي بالرفق واللين

ان الدول العظمى تقدر الآن على اقتسام جميع بلاد الدولة العثمانية بحيث يكون سقوطها اهون عليهن من سقوط مراكش بل من أخذ طرابلس الغرب الذي لم يتم لهن في سنة وقد يتم هذا في شهر ، لانه تبين لهن ان القوة العسكرية العثمانية التي كان يخشى بأسها غير منضمة كما يجب ولا أعد لها مال يمكن به جمعها ، وايجاد عمل كبير بها ، وأما القوة المعنوية فقد هدمن أركانها بأيديهن وأيدي

المتفرجين في الآستانة وغيرها ، فهن لا يخشين من استعمالها اياها ، ولكن منهن من تداري بعض المسلمين في بلادها ، فهن الآن قادرات على ان يبطشن البطشة الكبرى وما هي منهن ببعيد . وقد كانت الدولة تعتمد على خلافهن وخلاف البلقانيين في المصالح والقسمة وهذا اقبح جهلها بالسياسة وأضره ، واذا جاز ان تتفق دول البلقان وهي أكثر تنازعا واقل حكمة وعلما من الدول الكبرى وان يعقدن بينهن اتفاقا ربما كان دائما وكن به دولة عظيمة متحدة ، فكيف لا يجوز اتفاق اولئك

اذا اكتفت أوربة هذه المرة بسياسة الجرح فالتخدير فقطع بعض الاعضاء وابقاء بقية الجسم وتركت التصدي لمثل هذه « العملية » زمنا طويلا فاني اعد ذلك منها إحسانا الى الدولة . ولكنها لا تحسن هذا الاحسان الا اذا كان فيه المصلحة لها . اما الاحسان الخالص بدم بترشيء من جسم الدولة وفاء بعهد الدول قبل الحرب فهو المنة التي يعجز عنها الشكر . ولعله يكون متعذراً اذا تم الفوز للبلقانيين ، وانما يكون ممكنا اذا اديل للعثمانية منهم فطردتهم من بلادها الى حدود بلادهم على الاقل . وما كل ممكن يقع

ان الذي يستنتج من مجموع صحف اوربة هو ان الدول الكبرى تخشى عاقبة هذه الحرب اذا تم الفوز للبلقانيين ، وهذا انما يكون اذا كانت غير متفقة على تقسم البلاد العثمانية كلها فان التنازع بينهم على الاوربية منها اشد ، وهو على اشده بين النمسة وايطالية وروسية ورومانية . ومحل الخوف من وجهين احدهما أن الحكومات البلقانية المتحدة قد خرجن بهذه الحرب من حجر وصاية الدول الكبرى وأعلن الرشد والتصرف الاستقلالي حتى انهن يصرحن بأنهن لا يقبلن وساطة أوربة في الصلح بينهن وبين الدولة العثمانية . واذا كان الامر كذلك كما هو الظاهر فلم يبق للدول الكبرى نفوذ ولا سلطان لا على الدولة العثمانية فاذا هي اظفرت قدرن على حفظ السلم العام بحرمانها من ثمرة الظفر والا فقد خرج الامر من أيديهن اذا كان بينهن خلاف ما ، و يظهر ان حكوماتهن حريصات على الوفاق وعلى حفظ السلم العام ، وان شعوبهن تميل الى البلقانيين لمكان الدين والمذهب والانتصار للصليب على الهلال والنصرانية على الاسلام ـ فالمستقبل مجهول الآن

أما نحن المسلمين فقد صرح سلطاننا برأي حكومتنا ان هذه الحرب سياسية لادينية . والمراد بهذا ان الدولة لاتعدها حربا دينية بالمعنى الذي تفهمه أو ربة وسائر النصارى من لفظ الجهاد الديني وهو ماقام به الصليبيون من قبل ومن بعد . وهو ان يقوم أهل دين على دين آخر لابادتهم أوإذلالهم وإزالة سلطانهم، والحق ان هذه الحرب لايراد بها عند دولتنا هذا المعنى. وانما هي دينية بمعنى آخر إسلامي عادل وهو ان اعداءنا قد اعتدوا علينا لاجل ديننا وسلطاننا وراموا أخذ بلادنا من أيدينا فيجب علينا شرعا ان نقاومهم بكل مانستطيع وان نجاهدهم بأموالنا وأنفسنا ـ وهذا مايعتقده جمهور المسلمين

يترتب على كون الحرب دينية بهذا المعنى انه يجب على كل مسلم أن يساعد الدولة عليها بما يستطيع من مال أو نفس ، وان تبذل فيها الزكاة الشرعية إما مقدار سهم الغزاة فقط عند من يعتقدون ان الزكاة يجب صرفها الى جميع الاصناف المستحقة لها ان وجدوا ، وإما صرفها كلها عند من يقول بجواز اداؤها الى صنف واحد . ويمكن ان يقال في هذه الحرب انه يجوز صرف سهام الفقراء والمساكين وابناء السبيل الى هؤلاء المقاتلين فيها لان الدولة عاجزة في هذا الزمن عن كفايتهم

اننا نرى ميل الشعوب النصرانية الى البلقانيين مما نقرأه عن الجرائد الاوربية مع علمهم بأنهم باغون معتدون فالواجب على جميع الشعوب الاسلامية أن تميل الى الدولة العثمانية بل يجب ذلك على كل شعب يرجح الحق والانسانية والسلم على الباطل والوحشية واراقة الدماء . ولكن هل يوجد في الارض شعب متصف بهذه الصفة ؟ لا لا

لا تحتاج الدولة الى من يجاهد معها بنفسه فان عندها جيشا كثيرا يكفي لرد عدوان المعتدين اذا وجد العدة والمؤنة الكافية . على أن هذه الحرب لا يطول أمرها الى أن يدركها من يريد امداد الجيش العثماني بنفسه من الاقطار البعيدة . فالواجب الجهاد فيها بالمال الذي يتوقف عليه كل شيء وهو الذي يمكن إرساله بسرعة البرق من المشرق والمغرب والجنوب والشمال

ان المسلمين انشأوا في بعض الاقطار يجمعون المال للاعانة الحربية وجمعية

الهلال الاحمر كما نذكر ذلك في باب الاخبار من هذا الجزء ولكن يظهر لنا من قلة ما يبذلون انهم لا يزالون غير شاعرين بكنه الحال ، وخطر زوال الاستقلال ، فاذا كانت هذه الصاخة الكبرى لم توقظهم فمتى يستيقظون « انا لله وانا اليه راجعون »

أما المغرورون من اوشاب الاستانة والروملي الاتحاديين ومن على رأيهم فلا نحاسبهم الآن على غرورهم التي قذفنا في هذه الهوة ، ولنا معهم كلام آخر بعد انتهاء الازمة ، وانما نذكر الناس بان هؤلاء قد جمعوا ملايين كثيرة من أموال العثمانيين وزعموا انهم يريدون بها حماية الدستور وتوقية المملكة ، فأي الامرين احق ان ينفق في سبيله مال الامة : أحفظ الدولة وسلامة أملاكها وشرفها ؟ ام حفظ الدستور بغير دولة ؟ ان زعماء هذه الجمعية قد استخفوا الامة العثمانية سنين حكموها باستبدادهم ، ولا يزالون محتقرين لها وقد خرج الامر من ايديهم ، ومن غروب هذا الاحتقار والاستخفاف قول طلعت بك وجاويد بك انهما يرغبان التطوع في الجيش !! ولو دخلاهما وامثالهما في الجيش ما زادوه الا خبالا يبغونه الفتنة وفيه سماعون لهم ، وانما الجيش في أشد الحاجة الى خزائن جمعيتهم لا الى تصديهم لحرب لا غناء لهم فيها إلا غناء الغانيات

المال المال هو الذي يغني الدولة عن كل ماعداه ولا يغني عنه تطوع المتطوعين ، وماذا تعمل الدولة بالمتطوعين يحشرون الى حيث لا يجد الجند المنظم خبزا يشبعه اذا هو اجتمع برمته

ألا ان المسلمين لم يستيقظوا من رقادهم ، فيشعروا بالخطر الذي حاق بهم ، وكل هذه الصيحات والقوارع التي تقدمت قيام ساعتهم ، لم تنبههم من غفلتهم ولا بصرتهم بسوء عاقبتهم ، (فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة فقد جاء إشراطها ، فانى لهم اذا جاءتهم ذكراهم)

اذا انتهت هذه الحروب بخروج الولايات المقدونية من سلطة الدولة وخرج معها من رءوس المتفرنجين الذين ربتهم لنا مدارس الآستانة غرورهم بأنفسهم وبجيشهم ومن رءوس معظم العثمانيين والملايين من المسلمين غير العثمانيين غرورهم بهم وبقوتهم ، وبقي للدولة استقلال صحيح ولو في بلادها الاسيوية فقط - فاني أعد هذه

الحرب والخسار فيها من اكبر نعم الله على الدولة والاسلام

ان الخطر ينذر هذه الدولة بالهلاك من زمن طويل ، وقد عجل عبد الحميد خطواته في زهاء ثلث قرن ، وعجلت جمعية الاتحاد والترقي خطواته في ثلاث سنين ، بأشد من تعجيل عبد الحميد لها في ثلاثين سنة ونيف ، ولم يقم أحد من المسلمين في كل هذه المدة بمشروع يدرء الخطر ، ويكفل مستقبل الاسلام المنتظر

طالما نبهنا الدولة في زمن عبد الحميد الى وجوب تعميم التعليم العسكري في جميع البلاد ، وايجاد قوة محلية منظمة في كل قطر من اقطارها ورجا من أرجائها ، وكنا استحسنا مشروع الألايات الحميدية في الاناطول وطرابلس الغرب فلم تكن كما رجونا وأملنا . وكنا اقترحنا على الدولة أن تنقل مركز العاصمة إلى دمشق الشام فان لم يرض زعماء الترك فالى قونية ، وأن تؤلف من عرب الجزيرة جيشا منظما ، يكون لها ردءاً وملتحدا ، يمد جيش الاناطول إذا هوجم من جهة الشرق ، ويخشى المستعمرون لأفريقية صولته من جهة الغرب ، فتضطر انكلترا الى الاتفاق مع الدولة في مسألة مصر وغير مصر ، وأما ما كان يجب عمله بعد الدستور ـ وهو الركن الشديد ـ فطالما ذكرناه في المنار تلميحا وتلويحا ، وفصلناه لبعض العقلاء من العثمانيين تفصيلا ، فما يوزنا الرأي ولكن يوزنا العاملون ، الذين يصلحون في الارض ولا يفسدون ، ولا يبالون بسعاية المفسدين ، ولا بنباح الكتاب المستأجرين ، ورب رأي أوعمل بعده ضعفاء العقول وأصحاب النظر القصير في وقت من الاوقات ضارا ويرون صاحبه بالخيانة ، يظهر في وقت آخر أنه مستقر النفع ومستودعه الذي لا يغني عنه غيره . واذا افتات الفرصة العمل به يتحسرون لفواتها ، ويتمنون لو نفذ ذلك الرأي قبل ذلك

الخطوب الاجتماعية كالامراض الجسدية « لكل داء دواء إلا الموت » فطوبى للامة التي تعرف قيمة أهل الرأي الصحيح الذي تنكشف به الخطوب وتعمل برأيهم ، وتهتدي بهديهم ، وويل للامة التي تجهل قيمتهم ، وتصغي أفئدتها الى المفتونين المغرورين عنهم ، من طلاب المنفعة العاجلة ، والشهرة الباطلة ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . « وما ربك بظلام للعبيد »